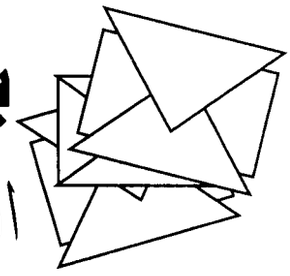

بريد الآداب

I ـ على هامش حوار السليماني ـ رئيس التحرير

وردتِ الآدابَ عدةُ رسائل تعقيباً على مراسلات رئيس التحرير والأستاذ أحمد السليماني، المنشورة في العدد ١٠/٩ من العام الماضي. وقد اخترنا منها رسائل ثلاثاً لمحمد أحمد الخضراوي، وعمّار الطيّب العوني، وصبحي فحماوي.

أ ـ في بلاد الكرنفال

طفقتُ أغُذّ السيرَ، وأنا أخترق شارع الحرية مُيَمِّماً صوبَ شقّة أحد أصدقائي. كان المكان يَعجّ بالحركة، وتُمَسْرِح الإشهاراتُ فوقه طقوسَها الإغرائيةَ، وراحت واجهاتُه تمشهد ـ بأضوائها الراقصة ـ مفاتنَ معروضاتِها، لا تبتغي إلا مراودةَ المارّة في الطريق العام عن نفسها...

ثم أبصرتُ فضاءً كنتُ أرتاده زمنَ التَّلْمذة ألتمس فيه تطلُّعاتِ الشباب الثّائر. توقّفتُ لحظاتٍ أُفاصِلُ فيها بين الحُلم والواقع، لأتأكّد إنْ كان المركزُ الثقافيُّ الروسيُّ قد تحوّل إلى مركز تجاريّ. وكانت المُفاجأة أنّ المعروضات في غالبيّتها شرْعيّةٌ: فقد نُضِّدَتْ مجموعاتٌ من الكتب القرآنية، والقراءات الدينيّة. دَلَفْتُ إلى الداخل، وأدَرْتُ عينَيّ إلى اليسار أوّلاً، فأبْصرتُ مُشْهَراتٍ روسيّةً مُبْتذَلَةَ المعنى، تُعاني أكثر مما تَعْني، وتَجْهَرُ بالاستسلام بعد أن كانت تَجْأَرُ بالثورة. كانت الكتبُ القادمةُ من اليمين قد حاصرَتِ الفضاءَ حتى لم يَبْقَ للعَوْن سوى رُكن قَبَعَ فيه وراء مكتبه الدّاكن، يُطِلُّ منه على ذلك الفضاء المحاصَر بنظرةٍ باهتةٍ تُعَبِّرُ عن واقع النكبة دون أن تَعْبُرَ نكبةَ الواقع. لم يكن الجوُّ سانحاً إلا للنَّدْب والبكاء على الأطلال. فهذي المبادئُ باتت مخذولةً، والقناعاتُ مكلومةً. وهذا الفضاء المأجور صيّر المركزَ الثقافيَّ الروسيَّ أرضاً بواراً تُعربد فيها دورُ النشر المُثْلى بالاتّجار في الممنوع المعنويّ، والمهْووسون بالوسائط الثقافيّة.

كنتُ أطوف متوجِّداً؛ فَقَدِ انصرَفَ الناسُ إلى الأسواق. نظرتُ إلى الرّفوف وقد تراكمتْ عليها الكتبُ، ونِسَبُ الخُصوم المتناقضةِ والتخفيضات المُلَفّقةِ، مُستعيداً صورةَ «النهر المُتجمِّدِ» الذي «هَرِمَ/وخارَ عَزْمُهُ/وانْثَنى عن المسير». وإذا بي أتوقّف عند روايةٍ عنوانُها: ***في بلاد الكرنفال****. جذبتُها برِفْقٍ دون أن أَنْظر فيها، واتّجهتُ نحو الوسيط الثقافيّ منتظراً الدَّفْع. ثمّ ألقيتُ نظرةً ثَكلى على المكان الّذي أمسى بأهْله خراباً، وتقدّمتُ نحو مصاحف القرآن الكريم المُنَضّدة، أَتعجّب من صلابة هذا النصّ اللّيِنِ أمام الزلازل الإيديولوجيّة... إنْ هو إلا مجموعةٌ من الأوراق اقتدرتْ أن تخترقَ قلاعاً مدكوكةً محصّنةً بالأقمار الصناعيّة والتكنولوجيا الفتّاكة لم يَقْوَ عليها النّصُّ إلا بقوّة الكلمةِ وعمقِ الدّلالةِ وصدقِ العبارة. وقد كانت سلاحاً للمثقّف، لا يُفَلُّ، حتى أطاحت السُّلَط بسلطةِ الحقّ، وسقطنا ـ نحن مثقّفي الحداثة ـ قبْل ابتداءِ الجولة الأولى... أعني منذ أن جَنَحنا عن مُقوِّمات الوجود، واعتبرنا الماديَّ مُقوِّماً وحيداً لكُنْه الوجود. ولمّا كانت إرادةُ القوة في العالم هويةً للكائن المعاصر، فإنّ المثقّفَ انجذب إليها رائداً الاستقواءَ بقوّة السلطة وفصاحةِ الدولار... ففقد السلطةَ والدولارَ، وظلّ ممثِّلاً أخْرَسَ figurant بين المعرْبِدين بمكاسب الأمّة وثرواتها، ومجرّدَ ديكورٍ في بنية السياسة العربيّة المنهارة.*

ولو أنّني استجلَيْتُ المعنى الثّاويَ خلف «بلاد الكرنفال» لأحالني ذلك على الخواء الوجوديّ... وأعني إقصاءَ الذات المفكِّرةِ العربيّةِ ذاتَها عن مسرح الفعل الاجتماعيّ. وناتجُ هذا الإقصاء الإراديّ هيمنةُ «الثقافة الكرنفاليّة» على نظام المعرفة بنسقٍ تهريجيٍّ يؤمِّن المصالحَ العليا للأنتليجنسيا العربيّة الرسميّة، وطبقةِ الخُفَراء المخفورين.

يبدأ الكرنفالُ الثقافيّ من كوميديا «السلام» الذي ذُهِبَ إليه: «بغُصْنُ الزيتونُ» (برفع المجرور والمضاف إليه): والغُصْنُ المُلَوَّحُ به، إنْ لم يكن اصطناعياً، فليس ثمة شكٌّ أنه قد جَفَّ قبل جفاف فِتْلَة السلام. ولقد بحثتُ عن تعريفٍ للسلام بين «الأرض مقابل الدولار»، و«الأرض مقابل السلام»، فلم أجده إلا في الجذر «س ل م»، من حيث يُشتقُّ منه السَّلامُ والاستسلامُ على حدٍّ سواءٍ. بهذه المغلطاتيّة انصهَرَ أشياعُ التطبيع داخل استراتيجيّات ذاتويّةٍ مُعبِّرةٍ بتراسيم الوصول... والعِبْرةُ بالغايات دائماً. وإذا كانت الغاياتُ تبدأ من المقدِّمات، فَلْتَكُن «النوايا السيئة» إذن: أعني الموجبَ المركزيَّ الذي حَوّلَ مناضلي العقود الفائتة إلى عصابات مافيويّةٍ تُنَظِّر من مواقع المسؤوليات لمُؤسّسات العمالة السلطويّة، منخرطةً في مُنتديات الصَّفاقةِ والتصفيق. وهذا ما أَثْمَرَ ظهورَ المُثقَّفين العَرَضيِّين أَوْ مثقّفي المناسبات، وهُمْ

فَنّيّو العمالة، ذوو القُدْرة على التّقلب مع الشّعارات، وقَلْبِ الشّعائر...

ولستُ أريد أن أسترسل في التعرُّض لسماسرة الثقافة، وأراجُوزات الفكر؛ فتلك متاريسُ قد حَصَّنَتْها الإيديولوجيا البورجوازيّة حتى لا تخترقَها «البياناتُ المعاديةُ». لكنّها تتجسّدُ بها ملهاةُ التّضادِّ الوجوديّ: فبالأمس كان التجريمُ يتمحور حول «العمالة لأمريكا وإسرائيل»، واليوم أضحى أساسُ التجريم «عدمَ التعاون مع أمريكا وإسرائيل!». متناقضٌ كلُّه الوجودُ العربيُّ؛ ولو لم يكن متناقضاً لما كان عربياً.

بهذا الاعتبار، أعني ارتكاسَ القِيم وانتكاسَ المفاهيم، تتَبدّى الآداب مجلّةً «فَظّةً» بموازاةِ المتزلّفات والمتزلّفين، والوصوليّات والوصوليّين. إذ لا تعرفَ أجناسيّاتُها الأدبيّةُ فَنَّ الغَزَل و«أدبَ» الامتثال. وهي بلغة «التّطبيع العربيّ الجديد» كاميكازيّةٌ *Kamikaze* لأنّها لم تَهْتَدِ إلى «المِصْعد الاجتماعيّ» ما دامت تعتمدُ «لذةَ النّصّ» بدلاً من «لذّةِ الحياةِ»؛ وهذه الأخيرة لا تُكَلِّف إلاّ شيئاً من المُساندةِ للاستبداد، وقليلاً من التصفيق... وبَعْضَ الوشايةِ إنْ لزم الأمر. فقط؟ فقط! ثم تنهال الدّولاراتُ دون حسيبٍ ولا رقيب. ولئنْ لَمْ تَفْعلْ لتَظَلّنَّ هكذا انْتِحاريّةً: تحمل بيدٍ نَعْشَهَا وتُمْسِكِ بالأخرى (بَدَلَ الرّشّاش) قَلَماً تَخُطُّ به الكلمةَ الحُرّةَ، وتبني العبارةَ المستقلّةَ.

لكنّ السُّنّةَ السوسيولوجيّةَ التي دأبتْ عليها أُمّتُنا تتأبّى، بمفاهيميّتها المتكلّسة، على نُقوش الكلمةِ وتطريزاتها العَلاماتيّة. والجماهير العريضة تَزْحف تحت ثقل القمع السياسيّ وسلطةِ الكُرباج. فتَأسّسَ في اللاّوعي بُنيانٌ أُسطوريّ للزعامات الكارزميّة. وأما مثقّفو الواجهة (أو الفترينة) فقد انتظم بهم الطابورُ الخامسُ للدكتاتورية العربيّة، حتى فَرضوا طَوْقاً على نسيج الفكر التحرريّ لتعميق الهُوّة الاجتماعيّة، وتشويهِ ذاكرة الأمة. ولهذا يُخشى على الآداب من وَأْدِ أدبيّاتها يوماً بقضاءٍ خارجيٍّ. لكنْ لا أحد يعتقد أنّ مثقّفي البيروقراطيّة وزبائنَ السُّلَطِ هُم وحدهم المسؤولون عن هذا: فهناك تفكّكٌ في النسيج الالتزاميّ نفسه، وأعني أنّ الصّفَّ المَبْدَئيّ يبدو مُتعثّراً في مِشْيته.

إزاء كل ذلك نسأل: لماذا لا تجتمع المجلاّت الحرّة حول الملفّات الكبرى؟

ـ ولماذا لا يقع التفكيرُ في إنشاء اتّحادٍ ثقافيّ عربيّ لتحصين الفكر وحماية المجلات؟

ـ ولماذا لا تنتظم حُسومٌ جماعيّةٌ في قضايا مصيريّة مثل: السلام المزعوم، والتطبيع، أو قضية العوْلَمة التي صار ينظّر لها الحداثويّون وإيديولوجيّو البورجوازيّة؟...

ملاحظة/إضافة

تابعتُ الحوارَ العلنيّ بين الدكتور سماح إدريس، والمثقّف التونسيّ السيد أحمد سليماني الذي أدْرك معاناتَه ونضاليّتَه المعرفيّة. لكنّ الجانب المأساويّ هو الوجه الآخر للحوار، وأعني الاستمتاعَ مقابل الحِرْمان: حين تَغْرق أُسرة الآداب في الإعْسار والضّيق المادّيّين ليقرأ المواطنُ العربيّ.. ويَلْهو مثقفو التّرَفِ في الكاباريهات المحليّة والكازينوهات العالميّة. وهذا سينتهي بنا إلى أمريْن. امتناعِ تعدُّدِ القراءة، والتحدُّدِ في الثقافة الواحدة لأنّ المجلات الأجنبيّة أشدُّ غلاءً. لذا نحن مَعْنيُّون أكثرَ من أيّ وقت بإنشاءِ اتّحادٍ ثقافيّ عربيّ كما أثْبَتُّ أعلاه، لإنقاذِ ما يُمْكن إنقاذُه. وإلا سينحَطُّ الجميعُ في المصير الأسوإ، وهو التقلصُ إلى العدم.. اللهم إلاّ المُرْتزقة من الصحائف فإنّها ستظلُّ تَكْسَب، ولكنْ إلى حين!.

محمد أحمد الخضراوي

(تونس، في ٢٨ أكتوبر ١٩٩٩)

ب ـ لسنا حمقى كي نَكْسر المجداف الوحيد!

العزيز رئيس تحرير مجلّة الآداب...

تحيّةً طيّبةً وبعد،

أوّلاً، نشكر همّتكم كثيراً لفتح صدوركم لإخوانكم داخل هذا الوطن الكبير لتقبُّلِ الآراء ولإفراغ البعض من شجونكم وكشفِ مستوركم لأُسْرَتكم الموسّعة كيْ تشارككم مشاغلكم. كما نشكر الأخ والصديق أحمد السّليماني الذي ما يزال ينبض حيويّةً كلّما تعلّق الأمرُ بهمٍّ عربيّ، ذاتيّاً كان امْ مَوْضوعيّاً. وأشكر انتصاره الدّائم لمجلّة الآداب منذ أوّل مرّةٍ وَجَدَها في محفظتي، إنْ لَمْ تخنّي الذاكرة!

ثانياً، ولأنّ الآداب «تدافع عن عقلٍ يقظٍ، وتذود عن هويّة وطنيّة عربيّة» كما قال الدّكتور فيصل درّاج، فنحن، مثقّفي هذه الأمّة العربيّة، أَوْلَى بشدّ أزرها وعلى حساب قوتِ العيال (كمانْ!) لأنّنا لسنا حَمْقَى كيْ نكسر المجدافَ الوحيدَ ثم لا نجد بعد ذلك للنّجاةِ سبيلاً وسطَ نظامٍ عالميٍّ يقوم على طمس الهويّة ويعمل على نشر ثقافةٍ مضادّةٍ تَقْطع الطّريق على حركةِ التطور وتقضي - مِنْ ثَمّ - على الحريّة التي تكمن في المقدرة على ذلك التطوّر. وقد نبّه المرحوم الدكتور عصمت سيف الدّولة إلى ذلك في كلّ كتاباته، غير أنّنا ما زلنا نكره الصّادقين والمخلصين. وبالمناسبة، فقد آلمني صمتُ الآداب، إذْ مرّ موتُه حركةً سريعة تحْت أنفها. فهل تَعِي مجلتُكم الغرّاء معنى هذا الصّمت...؟!.

أخي الكريم

اعذرني عن هذا الخروج. غير أنّي قد أجد له تبريراً.. وسطَ ما نعيشه من تغييب لكلّ فعلٍ حرّ. وهو الأمر الذي لم نعهدْه في الآداب، ولذلك كبرنا معها وكبرتْ أحلامُنا معها.. إنّ لَوْمي هذا هو لأذكّرَ أهل القُرْبَى.. ولأنّنا نرغب في رؤية مجلّتنا دوماً عاليةً كمداراتنا. ولا يهمّ بعد ذلك ارتفاعُ سعرها، ولا حتى طيرانُه، ما دامتْ تستحقّ ذلك.. بل يجب أن يكونَ السّعْر أرْفَعَ من سعْرِ أشرطة الڤيديو الإيروتيكيّة، عسَى أن يفهم القومُ حقيقةَ مركزها!.

وأخيراً، أشدّ على أياديكم، وألْتمس من سيادتكم مدّ أحمد السليماني بالعدد الأخير من السنة ٤٣، أيْ عدد ديسمبر ١٩٩٥، وسأَحْكم عليه بدفع معلومه بالثمن الذي أَقَرّه نكايةً في النظام العالميّ الجديد، هذا الذي لا يريد لقوى الخير الامتدادَ!... مع أمنياتي بأنْ تبقى الآداب لغْماً يقتل أعداءَها، لا كما قال العزيز ليث الصّندوق حين وَصَفَ رأسَه الذي يؤْلِه لتعذُّر الحصول على الدواء وسط الحصار على العراق، فقال إنّه: «رأسٌ/لغمٌ يَقْتل صاحبه» (الآداب ٣/٤، ١٩٩٦)! وبالمناسبة أرفع تحيّاتي إلى الشعب العراقيّ الصّامد من خلال ما تبقّى مِنْ رأسِ شاعرنا الذي دوّختْه الجناياتُ العالميّة.

أخوكم
عمّار الطّيب العوني
(تونس، في ١٩٩٩/١١/٢٩)

ج - المثقف العربي لا يملك الثمن!

السيد رئيس تحرير مجلة الآداب المحترم

تحية واحتراماً،

مجلة الآداب هي الأعرقُ بين المجلات الثقافيّة العربيّة، والأكثرُ التصاقاً بالقضايا الثقافيّة للشعوب العربيّة. ولكنّ المثقف العربي، كما قال السيد أحمد السليماني من تونس، لا يملك أن يدفع ثمن مجلة الآداب. فالأغنياء لا يقرأون مجلةً راقيةً من هذا النوع. والمثقفون من أبناء الطبقة المتوسطة (وهم الأكثر في هذا العصر الرأسماليّ) لا يستطيعون تدبيرَ ثمنها، ولا يهتمون بورقها المصقول. إنّهم يريدون أدباً نظيفاً فحسب!. ولذلك أَقترحُ عليكم تخفيضَ نوعية الورق ليكون مثلَ ورق جمعيات البيئة (recycled) أو ما بينهما، وأَقترحُ أيضاً استدراجَ إعلاناتٍ حتى لو كانت أثمانُها منخفضةً، واستدراجَ عروضِ مطابع أخرى لعلّها تخفض تكاليفَ الطباعة، ونشرَ معلوماتٍ عن الآداب في الانترنت ليزيد الاشتراكُ السنويُّ فيها، وتخفيضَ الاشتراك السنويّ للأفراد. فبذلك يتضاعفُ عدد مبيعات المجلة.

وأودّ أن أشير إلى أنّ القصة القصيرة لا تلقى اهتماماً من قبلكم، كما هو شأنُ باقي الموضوعات. وهكذا نرى القصة تَلِي أختها محشورةً حشراً! (...).

وأرجو في الختام تحويل الأرقام في مجلة الآداب من الرقم الهنديّ ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤... إلى الرقم العربيّ 1 - 2 - 3 - 4.

وسامحوني لهذه الطروحات التي لم تأتِ إلا لشعوري بالانتماء إليكم، وكأنّني واحدٌ من هيئة تحريركم الموقّرة.

مع تحياتي
صبحي فحماوي
(الأردن، في ١٩٩٩/١١/١٨)

II ـ كتّاب العراق، بين الأعرجي ورئيس التحرير

أرسلت الكاتبة العراقيّة نازك الأعرجي رسالةً إلى رئيس التحرير، يعتقد أنّها تهمّ القرّاء العرب وإن كانت تعنيه مباشرةً. وقد أرسل الى السيدة الأعرجي رسالةً عقب رسالتها الأولى لكنّه نسي أن يصوّرها لينشرها ههنا. غير أنّه يبدو من رسالة الأعرجي الثانية أنّ رئيس التحرير كان محُتداً بعض الشيء، وأنّه تمنّى عليها أن تسعى ـ قدر استطاعتها ـ إلى تأمين اشتراكات من العراق، وعاتبَها على عدم الكتابة في الآداب لـ «مجردّ» عدم إرساله أعداداً منها إليها. فيما يلي تنشر الآداب رسالتيَ الأعرجي، ورسالةً علنيةً من رئيس التحرير، ونعتذر عن عدم وجود رسالته الأولى هنا.

الرسالة الأولى من الأعرجي

بغداد ١٨/٢/١٩٩٩

عزيزي الدكتور سماح إدريس

محبتي واعتزازي

سأذهب مباشرةً إلى سؤالي، الذي أجّلتُه مراراً في انتظار ما يمكن أن يُغْنيني عن طرحه. هل يَثْقل عليكم، إلى درجة الاستحالة، إرسالُ أعداد مجلة الآداب *إلينا، نحن الكتّابَ المحاصَرين الذين أرسلتم إلى مراسلكم الأستاذ ماجد السامرائي ليستكتبنا تجاربَنا في مقاومة الحصار، أو العيشِ داخله، أو... أو...؟ [إشارةً إلى ملف «المثقف العراقي والحصار» الذي صدر في عدد* الآداب *٧/٨، ١٩٩٩].*

ألا يُفترض بكم أن تضيئوا شمعتكم أولاً، ثم تستقصوا آفاق ظلمتنا لَتَرَونا وَتَرَوْا أنفسكم والآخرين من أصدقاء وأعداء، ومحبِّين وكارهين ولامبالين؟...

ألا تعلمون أنّنا ـ عدا فئةً قليلةً جداً جداً ـ نكاد لا نتّصل بحركة الثقافة العربيّة والعالميّة إلاّ عن طريق أعداد نادرة من الكتب والمجلات التي يَحْصل عليها بعضُنا حين يسافر، فتظلّ هذه المطبوعاتُ تتنقّل بيننا في رحلةٍ بطيئةٍ حتى تَعْتق، فلا يشعر قارئُها إلاّ بالإحباط وهو يَجدُ نفسَه على مبعدةِ شهورٍ من صدورها؟

أنا هنا [في الأردن] منذ عام وشهريْن. وحين عدتُ إلى بغداد جلبتُ معي أعداداً كبيرة من الكتب والمجلات. فهل تصدِّق أنّني ما زلتُ حتى الآن أُعير كتبي ومجلاتي لزملاء وزميلاتٍ يجدونها جديدةً، وهي تَنْقصهم بالتأكيد، وكانت ستعوزهم لو أنّني كنتُ شحيحةَ اليد في الإعارة أو في الشراء؟ وهل تصدِّق أنّ المجلات الخفيفة (العامة والفنيّة) تؤجَّر في المكتبات لقارئيها، لأنّ أحداً لا يَقْدر على دفع ثمنها واقتنائها؟ وهل تصدِّق أنّ الكتب تُستنسخ وتُجلَّد وتباع، حتى صار بعضُ الكتّاب محترفي تجليدٍ توفيراً لسعر الكتاب المستنسَخ؟

سأحكي لك قصة. لقد جلبتُ معي ـ مِنْ بين ما جلبتُ [من الأردن] ـ حوالى أربعين عدداً من مجلتَيْ ***صباح الخير*** *و****روز اليوسف****، كلها لعام ١٩٩٧. وقد اتخذت سبيلَها إلى الإعارة فور وصولي: عشرة أعداد للإعارة الواحدة، تُستبدل بعشرةٍ غيرها عند إعادتها. هل تصدِّق أنّ أطولَ فترةِ استعارة لم تتجاوز الثلاثة أيام؟ وقبل أيام كنتُ أشتري بعض الأغراض من أحد الدكاكين حين لمح البائعُ المجلات في كيسٍ أحمله، فهتف بابتهاجٍ بالغٍ وقد أَشْرق وجهُه: «الله... روز اليوسف، مجلتي المفّضلة، كنتُ أشتريها كلّ أسبوعٍ قبل أن...».*

صدِّقني، لا أستطيع أن أصف لكَ انفعالي آنذاك: أوشكتُ أن أبكي، وإنْ كنتُ أكاد أطير من الفرح. أعطيتُه المجلات، فتراجَعَ منفعلاً وهو يقاوم شوقه لأخذها؛ فقد حَسِبَ أنني لا يمكن أن أفرِّط بهذا الكنز من أجل شخصٍ مجهولٍ، وبخاصةٍ «بائع في دكان»!. وبالطبع، لم أبذل جهداً كبيراً لإقناعه: فقد كان متشوِّقاً شوقاً لا مزيد عليه لمجرد لمس أغلفة المجلات. ومن أجل أن يطمئنني ـ ربما ـ جَعَلَ يُخْبرني بتفاصيل عن تحصيله العلميّ، ومهاراته، ووفرةِ حظه في البقاء حيّاً، و«اضطراره» إلى العمل بائعاً، على أمل ألاّ يكون ذلك نهايةَ المطاف. وهكذا أُضيفَ هذا البائعُ إلى قائمة الإعارة، حتى دون أن أدوِّن اسمه!

أعود إلى سؤالي: لماذا لا تتكرمون علينا بأعداد مجلة الآداب؟ *لا تَقُلْ لي إنّكم لا تَقْدرون على ذلك، فإنّ ذلك سيزيدني يأساً وقنوطاً!*

إنّ آخر عدد وصلني من الآداب *كان العدد ١ ـ ١٩٩٨/٢، حيث نشرتُم لي فصلاً من رواية* ***مدار الهلاك****. ثم اكتفيتم بذلك اكتفاءً لا يبدو أنه سينتهي، فَلِمَ؟ هل يكلِّفكم ذلك ما لا طاقة لدار الآداب به؟*

أخبرني ماجد السامرائي بمشروع جمع شهاداتِ الكتّاب العراقيين عن مقاومة الحصار، وطَلَبَ مني المشاركةَ فرفضتُ. قلتُ له: سأفعل حين ترفع «دارُ الآداب» حصارَها عني وترسل إليّ أعداد مجلتها!

آسفة، إذا ما كان عتابي قاسياً؛ فنحن نقول «العتاب على قدّ المحبة». حقاً، هل يكلِّفكم ما لا طاقةَ لكم به أن تُنعشوا حياتَنا ببضعة أعداد من كل عددٍ من أعداد مجلة الآداب*؟ وفي هذه الحالة ألا يخفِّفُ من مثل هذا العبء المفترض تزويدُنا بأعداد من «المرتجع»؟ أم أنّه مخصّص للمجلدات الكاملة؟ ما الحلّ برأيك؟ يخيل إليّ أنّ لا مفرّ من حلٍ «ماريِ أنطوانيتيٍّ»: أن ننتقل إلى الإنترنت، مثلاً!!...*

(...) وتقبّل في النهاية وافر التقدير والمحبة والاعتزاز.

نازك الأعرجي

الرد على الرسالة الأولى

بيروت في ١٩٩٩/٨/١٧

رسالة من رئيس التحرير إلى نازك الأعرجي، لم يصوِّرْها، فتعذّر نشرُها. وقد أرفقَ الرسالةَ بعددَيْن أخيرين من الآداب.

الرسالة الثانية من الأعرجي

بغداد ١٩٩٩/٩/١٥

عزيزي الدكتور سماح...

تحياتي لك، وأسفي عميق لأنني المتُك، بحيث انكَ بعد مرور اكثر من خمسة شهور على رسالتي ما زلتَ متأثّراً منها، مع انّ الكثير مما قلتُه كان مجردَ عتابٍ، وأظنني قد وصفتُه بأنّه «على قدر المحبة».

يا عزيزي.. ما شأني أنا باشتراكات الوزارة، أو الجامعات؟. فلو كنتُ أملك التساؤل والمساءلة، لتساءلتُ أو ساءلتُ عمّا جعلني لا أستطيع الاشتراكَ بما أشاء من مجلات، أو اشتري ما أحتاج من كتب، بعد أن كنتُ (كنا جميعاً) نحملها من المعارض بالصناديق، ونَجرفُ المجلاتِ والصحفَ بالأكوام من مكاتبنا كلَّ أسبوع. فلا تجعلني أغلط، فأفكر بأنّك تأخذني بجريرة آخرين!

أما قولُك إنّك قد ساءكَ إحجامي عن الكتابة إليكم «لمجرّد» انكم لم ترسلوا اليَّ الآداب*، فقد أثار دهشتي. إنّ هذه الـ «مجرّد» شديدةُ التجريد. فهل بعد كلِّ الذي قصصتُه عليك من ملاحمِ البحثِ عن المطبوع، وتداوُلِهِ الشرس بيننا، تعتبر إرسالَ* الآداب *من قبلكم وحصولَنا عليها: «مجرّد»؟!.*

ما رأيُك أننا قبل أقلّ من شهرٍ تداوَلْنا (خمسة أصدقاء وصديقات) صفحاتٍ ثقافيّةً لصحف عربيّة صادرةٍ قبل عامين، وقرأناها بكل القهر والألم الذي تتخيّله؟ بل إنّنا في الواقع أَعَدْنا قراءتَها لأنّها من حصادِ وجودي في عمّان عام ١٩٩٧.

يا عزيزي، نحن معلّقون خارج الزمن. لا تقرأْ هذه العبارة بشغف، ولا تستمعْ إلى موسيقاها. انظرْ إليها على أنّها حقيقة. وانظرْ حولك: انظرْ نظرةً صاحيةً منتبهةً إلى ما يصلُكَ بالعالم من وسائل، أقلّها قيمةً وتأثيراً المجلاتُ والصحفُ...

أنا حين «ألمس» المطبوع، مجردَ لمس، أُحسّ بتيار الزمن المنفلت بعيداً عني يعود ليسري في كياني. في إحدى المرات وصلتْني مجلةٌ فجلستُ أمامها مأخوذةً، وأنا أتخيّل المكانَ الذي جاءت منه، والطرقاتِ التي انتقلتْ عبرها، واشتقتُ أن أُجنّ لكي أستطيع استنطاقَ الجمادِ الذي بين يديَّ عما أَحَسَّ به وراه على تلك الطرقات!

كيف أعبّر لك؟ أظنُّ أنّ اعتبارات كهذه وغيرها تُدرَك عقلياً وعلى أحسن وجه، ولكنّ إدراكَها غيرُ كافٍ لمعرفة معنى مكابدتها. إنّ الإنسان لا يَعْرف معنى أن «يَسْمع بالحياة» لأنّه يعيشها، لكنه حين يُصْبح في وضع «السمع بالحياة» يُجَنّ جنوناً من أجل أن يعيشها. ولكنْ، صدِّقْني، لقد أسفتُ على كتابةِ رسالتي تلك، مباشرةً بعد إرسالها، وبالتأكيد لم تَخطرْ لي أفكارٌ حول مشاعر قاسية [نَحوَكَ]. فأنا ـ واللّه ـ لا أُحبّ العتاب أو اللوم، ومعاتبتي لكم كانت من المرّات النادرة في حياتي، ولا أدري كيف انْسَقْتُ إليها.

أظنني سمعتُ من ماجد السامرائي أنه استلم عدداً من الآداب *لي فيه موضوعٌ، فرجوْته أن يَدَعني أتصفحه، فوعدني، ولم يفِ، ثم وعدني وَأَخْلَفَ، فغضبتُ وتألمتُ، وأظنّه قد سألني المشاركة في ملف المجلة حول «المثقف العراقيّ والحصار»، وكنتُ ما أزال متألمةً، فقلتُ له: «ليرفعوا حصارَهم عنا أولاً!». وأنا أُدرك طبعاً أنْ لا حقّ لي في افتراض أيّ التزاماتٍ من جانبكم. وفي هذه الظروف بالذات ما كان يجب أن أقولَ ما قلتُ.*

ماجد السامرّائي يبلغك تحياته وشكرَه على مقترحكم إيداعَ أعدادٍ من المجلة في سفارتنا في عمان لغرضِ إيصالها إلى بغداد، وسيكون هو في عمان في نهاية هذا الشهر «أيلول»، وسيتصل بكم لترتيب الموضوع.

أرجو أن تتقبّل في ختام رسالتي اعتزازي ومحبتي واعتذاري.

نازك الأعرجي

الردّ على الرسالة الثانية (ردّ علنيّ)

بيروت في ٢٠٠٠/١/٤

عزيزتي السيدة نازك الأعرجي المحترمة،

تحيّة طيّبة وبعد،

فقد تألمتُ كثيراً لألمك، وتألمتُ أكثر لاعتذارك. فنحنُ ـ كُلّ العرب أو معظمَنا ـ أحقُّ بأن نعتذر إليكم جميعاً، يا أهلَ العراق، عن عجزنا عن أن نوقف نهر الموت الذي يَجْرفكم أطفالاً وشباباً وشيوخاً ومثقّفين. ولكنْ ما حيلتُنا ونحنُ أعجز من أن نمنع مستوطنةً واحدةً من أن تُبنى في فلسطين؟

ولكني أصارحكِ بأنّ الآداب هي أيضاً تعيش حصاراً. وحصارُنا، بالتأكيد، لا يوازي عذابَ يومٍ واحدٍ من عذاباتكم في العراق، ولكنّه حصارٌ رغم ذلك. ولعلّكِ تعلمين أنّنا ممنوعون من دخول عددٍ كبير من الدول العربية، وأنّ بعض الدول الأخرى تسمح بدخول الآداب بعد انقضاء أكثر من شهر ونصفٍ على صدورها (الأمرُ الذي يَقْتل، أحياناً، رغبةَ المواطن في شرائها). ولعلّكِ تعلمين أيضاً أنّ المجلة تباع بأقلّ بكثير من كلفتها، وأنّ «قراصنة التجميع» يشترون بعضَ أعدادها بسعر زهيد ويبيعونها بعشرات الدولارات في الولايات المتحدة وأوروبا. ولكنْ هل تعلمين أننا أرسلنا عشراتِ الأعداد إلى إخواننا في العراق، غير أنّ يداً خفيّةً حالت دون أن «يَلْمسوها» ـ ولو «مجردَ اللّمس» على حدّ تعبيرك؟

أنتِ، يا عزيزتي، واحدةٌ من مئات القرّاء أو المسؤولين عن المكتبات العامة الذين يتمنّون علينا أن نُرسل إليهم أعدادَ الآداب. فهل نستطيع ـ في أوضاعنا الماديّة الحاليّة ـ أن نلبّي طلباتهم (وكثيرٌ منهم أصدقاء أوفياء لنا؟). خسائرنا تتراكم، حتى قرّرنا أن نتوقف عن إرسال المجلّة إلى أيٍّ كان على سبيل الهديّة. ومع ذلك، استثنينا العراقيين، وَأَعْلَمْنا ـ غيرَ مرّةٍ ـ السفارةَ العراقيّة في لبنان والسفارةَ العراقيّة في الأردن أنّنا على استعدادٍ لإرسال ثلاثمئة عدد على الأقل مجاناً إلى العراق شرط أن تتكفّل إحدى السفارتيْن بأجور الشحن. لكنّنا ما نزال ننتظر الجواب. وها نحن نُعْرب عن استعدادنا ذاك علناً، ونتعهّد علناً أن لا نطالب حكومة العراق بأيّ قرشٍ بعد زوال الحصار ثمناً لهذه النسخ لأنّنا نعلم أنّ أمام العراق مسؤولياتٍ أعظمَ بعد سقوط الحصار الجائر... قريباً إنْ شاء الله.

تُرى، لِمَ لم يأتِ الجوابُ؟ ألأنّنا لا نُرضي بعضَ الناس في العراق، على الرغم من تفانينا في فضحِ الولايات المتّحدة، والوقوفِ ضد الحصار، والتلاحمِ مع الشعب العراقيّ الشقيق؟

قد تقولين إنّ العراق لا يملك مالاً يبذّره على الثقافة. ولكنّنا نعرف أنّه يشترك بعشرات النسخ من بعض المجلاّت الأخرى. (وأنا، بالمناسبة، أعتذر عن ظنّي أنّ بإمكانكِ تأمينَ بعض الاشتراكات العراقيّة الرسميّةِ لنا!).

كلّ ما أتمنّاه أن تتفهّمي حرصي على أن أُبقي الآداب كما هي، حيّةً، دون أن أُرهِقَ كاهلَ «دار الآداب» في هذا الزمن العربيّ الذي قلّ قُرّاؤه وكَثُرَ سفّاحوه. فـ آداب حرّةٌ، حيّةٌ، مستقلّةٌ، ديموقراطيّةٌ، لا تُنقذُ ـ بالتأكيد ـ طفلاً عراقياً واحداً من جحيم الجوع وبراثن المرض والموت، ولكنّها ـ بالتأكيد أيضاً ـ لن تُشارِك في قتله.

ودمتِ لنا صديقةً عزيزةً وفيةً

سماح إدريس